بثينة الناصري

القارب

تلفت حوله بحذر ، لا نأمة في عتمة الليل غير اضطراب النهر يضيئه القمر ، وظل « علي السماك » ينحني على شبكته في قارب يسرح به الماء بعيدا .

أشار برأسه للمرأة المنسلة خلفه ان تتبعه . لفت (العباءة) حول جسدها فانزاحت اطرافها عن نعلين مزركشين تارجحا اثر خطواته .

وهبط مدارج طبيعية من الحجر ناتئة في السدة الترابية ، ثمة في رطوبة الظلال منها اعشاب برية وصخور مرصوفة بهندسة فجة .

حددت عيناه الصقريتان موضع قاربه ، فخب نحوه يطوح بالزجاجة الملفوفة بكيس ورقي ، جلبابه الاسمر يرف حول ساقيه .. يلتصق بهما كاشفا خطوط جسده الشاب المديد . وخلفه كانت المرأة ناحلة قميئة تتبعه كظل مختصر ..

رأته يظفر الى قارب مركون عند منحنى رملي تفوح منه رائحة صبغ نفاذة .

حكت انفها ، وسلمته يدها فجذبها الى الداخل ، ضحكت ، فهمس : اشش .

سدت فمها بكف واشارت بالاخرى الى صناديق الفاكهة الخشبية التي كان قد وضعها في تجاويف القارب ومد عليها بساطا رثا .

جلس واخرج من قعر القارب فانوسا مغبرا وشرع يعالجه .. تهدلت العباءة الى كتفها فسوت شعرها القصير باصابعها وجلست امامه ترقب يديه .

وعلى الضوء المتراقص داخل الزجاجة رأت عينين سوداوين حادتين ووجها صارما وسيما وصدرا برونزيا خاليا من الشعر .. ورأى عينين تعبتين ووجها عاديا فيه شيء من الكآبة والبله ونحرا معروقا ونهدين صغيرين .

قال : (اخلعيها) ومس العباءة .

قالت : لا .. مرتاحة .

ظل يحدق بها . نقلت عينيها بين صدره والمظلة الخام التي تغطي القارب ، ولهبة الفانوس .. ثم كورت العباءة ووضعتها جانبا .

كان الثوب الذي ترتديه اصفر موردا ، سألها بحذر : انت مريضة؟

شهقت محتجة : اسم الله .

واردفت وهي تكشف عن ذراعها : سلمني الهم ، لو رايتني قبل خمس سنين ، كنت شيئا اخر .

قذف بالكيس الى النهر وفتح الزجاجة باسنانه .. استدار نصف استدارة وجلب من مكان ما كوبا مثلوم العروة . رشفت منه مترددة ، استند على كوعه وكرع من فم القنينة ، اختفت الحدة من وجهه وقال وهو يلمس المجداف :

ـ يعجبك ؟

ـ ماذا ؟

ـ قاربي الجديد هذا .

تلفتت حولها :

ـ اي ..

. استلمته البارحة .

اعتدل في جلسته وقبض على يدها وهمس :

ـ لم اذبح له .

خلعت نعليها واخفتهما تحت العباءة :

ـ لا افهم .

استعاد وضعه الاول وقال :

ـ اعتدنا ان نذبح للقارب الجديد ونلطخ جدرانه بدم الضحية .

رأت اكفا حمراء تهوي على بياض ، وامتلأت رئتاها برائحة نزف دافق ، على عتبة الضريح سال ذوب الشمع الملون وطبعات اصابع ملوثة بالحنة الداكنة كدم خاثر .. كان في باطن يدها اثر حنة من عرس اختها .

ـ تزوجت اختي في الشتاء .

ـ عندك اخت ؟

ـ ماذا تظن اذن ؟ « اربع خوات » .

همهم بشيء وهز كتفيه . وصب في الكوب ثمالة الخمر . رفت ظلة القماش وتكسر حول القارب موج فضي . قالت بنعومة :

ـ ليالي الصيف صارت احلى ..

ـ تعالي هنا .

انتشرت الفوضى على ملامح وجهها العادي :

ـ تعالي هنا .

وربت على المكان الخالي قربه .

ـ ماذا تظن ؟ انا من عائلة .

ـ اعرف ، تعالي هنا .

قالت وهي تنتقل الى جانبه :

ـ تشاجرنا وتركت البيت ، قلت افرج عن همي .

ـ حسنا فعلت ، انظري ماذا افعل انا ، قالوا حرام الا تذبح للقارب يمسه ضرر ، قلت احتفل بطريقتي .

ازاح الثوب عن ركبتيها ..
ـ ياه .. انت هزيلة جدا .. مريضة ؟
ـ سلّني الهم .. لو رأيتني قبل خمس سنوات .
ـ اي هم ؟
ـ لا تسالني .. همي لا يروى .
طوح بالزجاجة الى النهر .
ـ ومن الخالي ؟.
تفاضت عن الثوب الذي تكور عند اعلى فخذيها ، وسالت :
ـ كم لك في هذا العمل ؟
ـ آه .. تعلمته على يدي ابي منذ الصغر .. كان ابي اقدم بلام في (الشريعة) .
هزت كتفيها وقالت :
ـ لو كنت مكانك لذبحت ، هذه امور فوق ادراكنا .
طرحها على الفراش الخشبي :
ـ ماذا قلت ؟ يعجبك المكان ؟
ابتسمت ولم تجب .
قال وهو يجس نهديها :
ـ هزيلة حقا .. سل ؟
شهقت وحاولت ان تنهض ..
ـ آه .. قلت هم ؟ من الذي همك ؟
جرت العباءة وغطت بها ساقيها العاريتين :
ـ خطيبي .
كانت اليد التي امتدت بين فخذيها خشنة وقوية لا ترد ...

حلوة يا ليالي الصيف .. رائحة الرمل المبلل والشوك النابت على الشواطيء .. حزينة يا ليالي الصيف ، تذكرت قطاراً يمرق في صمت الليل ونقيق الضفادع والشوك المندى .. ذات ليلة بعيدة، بعيدة في مكان ما من الذاكرة .

كان الجسد الجاثم فوقها يفوح بالعرق ورائحة الخمر الرخيصة ، واجتاحها حنين طاغ الى الغريب :
ـ تدري ما تشبه رائحتك ؟
ـ هه ؟
ـ الارض بعد المطر .
ـ نحن في الصيف .
ـ ما الفرق ؟
ضحك رغما عنه :
ـ سكرت والله .
دفعته بوهن :
ـ لو رآني لذبحني .
ـ من ؟
حدقت في عينيه المغمضتين وصاحت :
ـ خطيبي !
ثم اردفت معتزة :
ـ هو سائق في الجيش .. عسكري .
هبط المحلة نهار صيف يلف صدره قميص مخطط بالوان فاقعة لفتت الانظار اليه ، وكان القدر قاد قدميه الى دكان امها ليشتري علبة سجائر ويسترق النظر اليها مرتين .

كان ثوبها الاخضر ضيقا يبرز نهديها ودورة فخذيها ، تاملها مرتين .. ومرتين بالفة ابتسم . وفي الاسبوع التالي وجدها في الدكان وحدها تمد اليه السجائر بيد راجفة مست دون قصد يده .
لهث الرجل فوقها وكانت هي تفكر :
ـ شبع النذل مني ، خمس سنوات .
وفكرت بصوت عال :
ـ تركني الظالم جلدا على عظم .
رفع الرجل جفنين ثقيلين وهمس :
ـ سل ؟
ـ آه ..

حاولت ان تدفعه عنها لكنه تشبث بكتفيها ، كانت الارض تحتها صلبة فظة تنغرس في لحم ظهرها بلا رحمة . اغرورقت عيناها ولم تعد تعرف ماذا تريد . سالت بصمت دمعتان ثم طاب لها ان تجهش بالبكاء . احتوى شعرها بكفه وقال بخشونة :
ـ انحتفل ام ننصب مناحة ؟
افترت شفتاها الشاحبتان عن بسمة واهنة وبدا وجهها المبلل بريئا كوجه طفلة .
ـ اسمعي ، انك جميلة حين تبكين وتضحكين .
اطلقت ضحكة صافية :
ـ وهل الحياة غير ذلك ؟
اعتدل عنها واشار الى الماء :
ـ انظري النهر : غاضبا مرة وهادئا مرة ، يسلب مرة ويمنح مرة ، في الصيف الماضي ابتلع النهر ابن علي السماك ولم يظهر بعد ذلك . راح في بطون السمك ، كان صبيا جميلا : شعر اشقر وعيون سود ويسبح كالسمك ، هل ترين اباه الان ؟.. ذاك العجوز المنحني على قاربه هناك .. النهر بطعمه .. تدرين ما تقول جماعتنا ؟ يقولون علي السماك يأكل ابنه كلما اصطاد ..
هز كتفيه :
ـ هذه هي الحياة .

احست بمرارة تسري في صدرها ، وخدش في بلعومها ، وبدوار خفيف ، حدقت في النهر .. تندفع طيات موجه الى الشاطيء تمس رمله تنساع على الارض ثم ترتد بسرعة ، وتصمت ، لتعود ، من جديد ، وموجة اخرى ، واخرى .. غامت عيناها ، وتعود من جديد ، اخرى ، كان الماء صافيا دهتما .. بريئا وغامضا لا يدرك .
ثقل راسها وطفرت قطعة من احشائها الى فمها وكانت حامضة ، مرة المذاق ، بصقتها في النهر ..
ـ علقم .
ـ ماذا ؟

واختنقت الكلمة في فمها ، خبطة على مظلة القارب ، وصرخة حادة .. توقف قلبها عن الوجيب ولاذت فجاة بعباءتها ، صاح هو مفتاظا ولبس جلبابه على عجل .
ومن خلل قطعة المظلة المزقة تدلى وجه كالح .
ـ كلاب .. وسختما الشريعة .
ورفع يده مهددا نابحا بصوت اجش :
ـ دع الكلبة تخرج .
قال الاخر :
ـ دعنا انت في حالنا .
ـ لن يطهر الشريعة ماء النهر كله .
ـ رح اخي .. رح ابحث لك عن شغل اخر .
تطاير الشرر من عيني الرجل :
ـ دع الكلبة تخرج اولا .
ـ ستخرج حالما تذهب انت .. كما تريد .
وابتعد صوت الرجل وهو يرعد حتى ذاب في صياح ديكة الليل :
ـ المجنون .. قطع النشوة علينا .
ازاحت العباءة عن وجه مرتعب ، قال وهو يداري غيظه :
ـ هذا (خلف) .
ـ شرطي ؟

اطلق ضحكة من الاعماق طويلة ..

ـ لطيفة والله ، هذا خلف ، هربت منه امراته وها هو منذ سنين يجوب الشوارع تائه الفكر حاملا خنجره في حزامه .

ابتلعت ريقها فشعرت بغصة مؤذية في بلعومها :

ـ لا احب ان يسميني كلبة .. عندي شعور .

قال ونقر على جبهته :

ـ المريض لا يحاسب .

ـ مسكين .. هل تراه يعود ؟

ـ الان ؟ هه .. اراهن انه نسي القضية كلها وانشغل بشيء جديد .

ـ كان يحبها ؟

ـ اوه ..

ـ قص ملح وذاب .

عبثت اصابعها باطراف ثوبها .. فكرت لحظة ثم قالت بشيء من الاعتزاز :

ـ لو كان يدري لذبحني دون تاخير .

ـ مـن ؟

ـ خطيبي .. لا يضرب مرتين .

خلع جلبابه مرة اخرى ومسح صدره بباطن كفه ..

ـ لو كان يدري ؟ اخبريه اذن .

ـ قد افعـل .

حدق في وجهها الكئيب الابله :

ـ مجنونة والله .

وكان في عينيها حلم حين قالت على مهل :

ـ لو اهرب ، يقيم الدنيا ويقعدها .

والتفتت اليه بخاطر برق لها :

ـ لصرت شغله الشاغل ليل نهار .

ـ يحبـك ؟

ـ لا .. ولكني شرفه .

ـ تعالي ..

جرها حتى سقط رأسها على ركبتيه ، رفعت اليه عينين مـاتت الرغبة فيهمـا :

ـ لا .. دعني اذهب .

ـ لم ننته بعد .

وضعت نعليها في قدميها :

ـ مرة اخرى ان شاء الله .

نهض وقبض على معصمها بقوة حتى تاوهت :

ـ اقول لك لم انته بعد .

ـ دعني اذهب .

لوي يدها واجلسها مرغمة :

ـ تسخرين منـي ؟

تضرع اليه وجهها :

ـ اني خائفة ..

الليل .. الليل .. الليل .. نباح مذعور واصوات ديكة تترامى من بعيد واليل الموج عند ارتطامه بالقارب تحركه ريح صيفية، وضربات قلبها تدق كالطبل في جنبات الليل .. الليل .

ـ اني خائفة .

ـ مـم ؟

ـ دعني اذهب .

امتدت يده الى ازرار ثوبها وفتحها عنوة . تدحرج زر الى ارض القارب ، وتعرت حلمتاها في وجه الليل .. سكن جسدها تحته ، وكان نحرها اسمر معروقا ، مكشوفا لبرد الليل ينبض ، ينبض .. ينبض . اهاجه ارتخاؤها فانطرح فوقها برغبة هائلة وهو يغل قبضته حول عنقها.

فجأة .. لسع ظهره العاري شيء بارد ، قفز عنها واستـدار . صرخ ورفع يده ليصد الخنجر المشرع فسال خط رفيع من الدم الـى مرفقـه .

تسمرت على الارض الخشبية يطل من عينيها قدرها ، وماتـت الصرخة التي طعنت في نحرها النابض ... النا ..

ـ كلاب .

وارتمى الاخر على ذراعيه وحاول ان يكتفه ولكن (خلف) كـان لاصقا بها ..

ـ خذي ايتها الكلبة .. خذي .. خذي .. خذي ، كلكن سواء .

وترتفع يده بالخنجر المدمّى وتهبط بضربـات متلاحقـة . يفغـر الجرح فاه .. وينبجس دم احمر قان يرش بياض جدران القارب .

وبعد قليل ، حين تركا الرجل العاري على حافة القارب ليفـرغ امعاءه في النهر ، تركت اصابعه طبعات حمراء على البياض .. اشبه بلوث حنة نذر على باب ضريح .

بغداد

العراء

مجموعة قصص بقلم

الدكتور سهيل ادريس

دار الآداب

صدر حديثا